المبتدأ والخبر – قديما وحديثا
أفكار متفرقة عن مفهوم الجملة الاسمية العربية وأهمية دراستها

تاماش إيفاني

بودابست

إن الأفكار التالية يمكن أن تعتبر ثمرة حصيلة التجارب التي توصلت اليها خلال خمس وعشرين سنة قضيتها في بحث شئون اللغة العربية ولغات شرقية وغربية أخرى، وكذلك من خلال ممارسة دراسة النحو العربي وأيضا تدريس اللغة العربية للطلاب المجريين.

وبإمكاني تلخيص هذه التجارب لكم في أربع نقاط رئيسية هي: –

١) تقييم بعض حصيلة النحو العربي القديم على ضوء تاريخ علم اللغات العام.

٢) إمكانيات استخدام هذه النتائج الأساسية عند دراسة لغات أخرى، غير اللغة العربية.

٣) أهمية استخدام المفاهيم النحوية العربية في تدريس اللغة العربية لغير الناطقين بها وتعريفهم بها.

٤) استخدام هذه المفاهيم القديمة في الأبحاث اللغوية الحديثة خاصة فيما يسمى النحو التواصلي، ونحو النصوص.

ففي البداية أريد أن ألفت أنظاركم إلى الفرق الكبير الذي يوجد بين مفهوم الجملة الاسمية عند النحاة الغربيين، وبين مفهوم الجملة الاسمية العربية. وأؤكد على أولوية وأفضلية النحو العربي من هذه الناحية.

ومفهوم الجملة الاسمية، كالمفاهيم النحوية الأوربية الأخرى، نشأ عن نحو اللغة اللاتينية، ولهذا السبب كان وما زال النحو الغربي يسمى نحوا ملتينا.

والنحو اللاتيني الراسخ في النحو والمنطق الإغريقي والذي لم يكن مناسبا حتى لوصف قواعد اللغة اللاتينية لا يلائم اللغات الأوربية الأخرى التي كان وما زال يستعمل لوصفها منذ حوالى ألف سنة.

وإن كان الوضع هكذا بالنسبة للغات الأوربية مثل اللغات اللاتينية الجديدة واللغات الجرمانية، فإنه لما يثير العجب أن مبادئ النحو اللاتيني لم تسبب صعوبات فقط، بل كاد تطبيقها يكون في حكم الاستحالة أحيانا، مثل ما حدث بالنسبة للغة الصينية القديمة التي لا توجد فيها أصناف الكلمات مثل: الاسم والفعل. ومن بين هذه اللغات المختلفة في تراكيبها عن تراكيب اللغة اللاتينية اللغة المجرية لغتي الأم.

THE ARABIST. BUDAPEST STUDIES IN ARABIC 9–10 (1994)
https://doi.org/10.58513/ARABIST.1994.11-12.11

ومن هذه المفاهيم المنطقية الدخيلة في النحو اللاتيني مفهوم الجملة الاسمية عندهم وطريقة تمييزها من الجملة الفعلية. **إذن، ما هى الجملة الاسمية في النحو الغربي؟**

الجملة الاسمية هى ما لا تحتوي من الأفعال إلا على الفعل الدال على الكينونة أو الوجود، وأما بقية الجمل فتصنف تحت "الجملة الفعلية". إذ أنه في اللغة اللاتينية، ليس ثمة جملة إلا وتحتوي على فعل من نوع ما.

ولكن الأمر يختلف تماما تجاه بعض اللغات الأخرى مثل اللغة المجرية، وأيضا اللغة العربية. ففي لغتي الأم هناك جمل اسمية تحتوي على فعل **"كان"** وأخرى لا تحتوي عليها، والفرق بين الصنفين لا يمكن التعبير عنه من خلال مفهوم النحو اللاتيني للجملة الاسمية ومصطلحاته.

أما اللغة العربية، فكانت وما زالت الكتب الغربية المؤلفة بهدف تدريسها تصفها على أساس هذه المفاهيم والمصطلحات المستعارة من النحو اللاتيني، أي من النحو الملتين. وهذا مما يسبب صعوبات للطلاب في تفهم جوهر الجمل الاسمية العربية. وأود تصنيف هذه الصعوبات والمشاكل في أربع نقاط:

١) في المنهج الأوربي الجملتان التاليتان يشكلان صنفا واحدا:

* أحمد مات أبوه

* مات أبو أحمد.

وهما جملتان فعليتان عندهم.

ويعتبر أصل كلتيهما: **مات أبو أحمد**. ومن حيث أن الجملة الثانية مستنبطة بالتقديم على الجملة الأولى، يسميها المستشرقون الألمان (Isolierung)[١]، والمستشرقون الإنجليز (Topicalisation) – أي تقديم موضوع الجملة[٢]. ولكن هذا المفهوم لا يساعدنا في فهم الاختلاف وسببه بين الجملتين، بل يستر هذا الاختلاف سترا املا لأن كل واحدة من هاتين الجملتين لها دور خاص في نصوص مختلفة وسياقات خاصة.

ففي حالة الجملة الأولى نتكلم عن وفاة أبي أحمد، بينما نتكلم عن أحمد نفسه في الجملة الثانية ونذكر وفاة أبيه.

هذا وقد صنف النحاة العرب القدماء هاتين الجملتين – ويصنفها العلماء المحدثون – في صنفين مختلفين:

١) مات أبو أحمد >> جملة فعلية.

٢) أحمد مات أبوه >> جملة اسمية.

---

[١] انظر مثلا: H. Reckendorf, Arabische Syntax

[٢] يسمونها باحثون أخر Extraposition انظر: Geoffrey Khan, Studies in Semitic Syntax. Oxford 1988.

٢) إن هذه الطريقة الغربية تسبب مشاكل أخرى لأن بين الجملتين فرقا في المطابقة أيضا: فإن الفعل الموجود في الجملة الفعلية لا يطابق بالعدد الفاعل (وأحيانا لا يطابق حتى بالجنس) بينما الفعل الموجود في خبر الجملة الاسمية يطابق المبتدأ، مثلا:

* نجح الطلاب في الامتحانات.

* إن الطلاب نجحوا في الامتحانات.

٣) يخفي المنهج الغربي السابق ذكره التشابه الأساسي بين الجملة الاسمية، كما يفهمها النحاة العرب، وتراكيب أخرى مثل الصلة والموصول والصفة والموصوف، واسم أن وأخواتها. وإنني لم أسميها أن وأخواتها غلطا، بل عن قصد، لأن الجمل المبدوءة بإن يمكن استنباطها من جمل أخرى، مثلا:

إن محمدا جاء من الجزائر.

تستنبط من الأصل:

جاء محمد من الجزائر

بتقديم محمد وإضافة **إن**. ولكن

رأيت أنّ محمدا جاء من الجزائر

لا تستنبط من أي أصل ثان (على الأقل لا تستنبط في إطار النحو الملتين).

ولتوضيح كلماتي السابقة لذكر ثلاث جمل مختلفة التركيب:

الطلاب جاءوا من الجزائر.

هم > الطلاب الذين جاءوا من الجزائر.

هم طلاب جاءوا من الجزائر.

ولكن ترتيب الكلمات متشابه في كل الأمثلة الثلاثة وهو ترتيب الكلمات المعتاد في الجملة الاسمية.

٤) وبالنهاية، فيصبح من الصعب أن نشرح سبب ارتفاع الاسم المقدم (أو المنعزل) بمعنى الكلمة السابق ذكره. لماذا؟ لأن هذا النحو الغربي للغة العربية يشرح اختلاف أواخر الكلمات المسمى بالإعراب على أساس القواعد المعتادة في النحو اللاتيني، ولهذا السبب لا يعتبر مرفوعا طبيعيا إلا فاعل فعل في الجملة الفعلية والمسند والمسند إليه في الجملة الاسمية التي خبرها مفرد ولكن على النحوي أن يجد طريقة ما لشرح ارتفاع المبتدأ عند ما يكون الخبر مركبا وهي الجملة الاسمية المسماة ايضا الجملة ذات الوجهين.

وهذه النقاط الأربع توضح لنا لماذا ليس النحو الملتين مناسبا لتدريس اللغة العربية وشرح أسرارها للطلاب غير الناطقين بها. بالتلخيص: ما كان بسيطا وطبيعيا ومنطقيا في إطار النحو العربي الأصيل أصبح معقدا واصطناعيا في ذلك الإطار الغربي.

فإنني لا أتكلم انطلاقا من مبادئ ونظريات فقط لأنني كنت قد جربت كلا الاقترابين والطريقتين لتقسيم الجمل العربية في تدريس الطلاب في جامعة بودابست خلال السنوات

العشرين الماضية، فوجدت أن الطلاب يستطيعون فهم وتطبيق الطريقة العربية أكثر وأحسن.

ولكن لم أجد الطريقة العربية لتقسيم الجمل أنجح في مجال تدريس اللغة العربية فحسب بل وجدتها مناسبة للتطبيق في تحليل لغات أخرى نحويا، بينها اللغة السريانية العتيقة واللغة السواحلية، وحتى ساعدتني في فهم تراكيب لغتي الأم اللغة المجرية.

وتبقى لي بحث النقطة الأخيرة، وهي أهم من كل هذه النقاط الأربع التي حاولت أن أتناولها هنا. وهذه النقطة هي الاستفادة من مفهوم الجملة الاسمية العربية في مجال الأبحاث اللغوية الحديثة، وخاصة فيما يسمى **النحو التواصلي ونحو النصوص المتكاملة**. وقد ابتدأ هذا الاتجاه من الأبحاث، أي الاتجاه التواصلي، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، عند ما جابه بعض النحويين الأوروبين مشاكل لا تتجاوز تحليل ووصف لغات غير أوروبية منها اللغة الصينية مثلا.

وكان من بين هؤلاء العلماء – ويمكننا القول أهمهم – Gabelentz[3] عالم النحو الألماني. وكان هو الذي استخدم لأول مرة مفهومين مهمين في وصف اللغة الصينية هما Thema & Rhema أو كما يسمى في أيامنا: الموضوع والتعقيب.

هذا الاتجاه الجديد يتأسس على أن هناك جزءا معلوما من الجملة (أو النص) وجزءا آخر جديد للمخاطب، مبني على المعلوم، وإن قصد المتكلم بنطق (أو كتابة) جملة ما هو الإعلام بهذا الجديد مفترضا العلم المسبق للجزء الأول.

وكان هناك باحث وعالم مجري في نفس القرن الماضي اسمه Samuel Brassai ولكنه غير اسميهما وتكلم عن **مبتدأ وخبر** (novum, inchoativum) دون معرفة شخصية بالنحو العربي.

ووصلت هنا إلى السبب الرئيسي الذي أخذت من أجله بتأليف هذا البحث وهو قرابة المفهومين العربيين: **المبتدأ والخبر** من المفهومين الحديثين في النحو التواصلي: **الموضوع والتعقيب** (Topic & Comment). طبعا عبارة النحو التواصلي ليس معناها أن هناك بعض الاتجاهات والاجتهادات في علم اللغة الحديثة والتي يمكننا أن نسميها نحوا تواصليا.

وحسب رأيي، فهذا النوع من النحو يجب أن يكون نحوا يعتمد على نص تام، أو حديث كامل وليس نحو الجمل مثل ما كان النحو التقليدي الغربي وحتي النحو التوليدي لتشومسكي (Chomsky). وفي هذا المجال يمكننا أن نستفيد كثيرا من بحث النحو العربي القديم وخاصة نحو **سيبويه**. ولماذا سيبويه ولا غيره من النحاة العلماء المشهورين والكثار الآخرين؟ وأحاول الآن التلخيص في كلمات معدودة أسباب تفضيلي إياه على بقية النحاة. وأهم هذه الأسباب هي:

---

[3] انظر: G. v. Gabelentz, *Zur chinesischen Sprache und zur allgemeinen Grammatik*. 1887.

أولا يمثل كتاب سيبويه تمثيلا ممتازا لما يسمى **النحو الوصفي** والطرق الوصفية، ومعنى هذا أنه في أغلبية الأحوال لا يرفض أو ينتقد ما يسمى **كلام العرب** مثلما يفعل **النحو المعياري**، ولكنه يلاحظ ويصف ويحق التركيب النحوي لهذا الكلام. ونتيجة طبيعية لهذا المنهج، لا نجد في كتاب سيبويه كلمة **"الجملة"** وهذا مظهر عادي لأن **النحو الوصفي** من طبيعته ألا يتكلم عن مثل هذه المفاهيم ولا يضع معايير مسبقة للوصف. فإن النحو الوصفي الأمريكي الذي أنشأه Bloomfield[4] في الثلاثينيات من هذا القرن، يقول إن اللفظة (utterance) {وليست الجملة} هي ما يقع بين سكوتين أو وقفتين في الكلام (أو بين نقطتين في النص).

ثانيا إصرار سيبويه إصرارا متمسكا على مبدأ أساسي في كتابه[5]، هو أن هناك تراكيب يسميها **أولا** وأخرى يسميها **ثانيا** ويقول مثلا:

"اعلم أن الاسم أول أحواله الابتداء والابتداء أول كما كان الواحد أول العدد والنكرة قبل المعرفة"[6]

وهذا المفهوم يعتبر مفهوما حديثا جدا، اسمه **"نظرية التميز"** (markedness theory)

وهذا المفهوم **الأول**" يمكن مؤلف الكتاب أن يستنبط من أصل بسيط كل التنوعات المختلفة المعقدة بدل من تقسيمها على أصناف متعددة.

ثالثا من أهم المناهج التي يلجأ إليها سيبويه في كتابه ما يسمى في المدرسة الوصفية الأمريكية Substitution[7] (الاستعاضة) وذلك أنه كثيرا ما يقول: **حل هذا محل هذا**، أو: **صار بمنزلته**، أو: **يصير بموضعه**.

مثل: **قولك {إن فيها زيدا} يصير بمنزلة قولك {إن زيدا فيها}**

و:**{فيها عبد الله قائما}** و**{عبد الله فيها قائما}**.

وعبد الله ارتفع بالابتداء، لأنه موضع له. ألا ترى أنك لو قلت {فيها عبد الله} حسن السكوت. كما حسن في قولك **{هذا عبد الله}**[8].

وكل ذلك يسهل فهم التراكيب النحوية ووصفها ولا يجعل ضروريا أن يقسم النحوي التراكيب المختلفة ظاهريا على أقسام كثيرة.

معنى هذا أن سيبويه يرد كل هذه الأنواع من الكلام إلى أصل واحد، ولا يحتاج إلى تقسيمها على أصناف جملية مختلفة، ويتناول قضية الحروف الخمسة التي تعمل

---

[4] انظر: L. Bloomfield, *Language* في طبعات عديدة.

[5] كتاب سيبويه. تحقيق: H. Derenbourg, Paris 1881-89.

[6] كتاب سيبويه ج ١، ص ٦: باب المسند والمسند إليه.

[7] انظر: Z. S. Harris, *Structures in Linguistics*

[8] كتاب سيبويه ج ١، ص ٢٢٢: باب ما ينتصب فيه الخبر لمعروف يرتفع على الابتداء قدمته أو أخرته.

فيما بعدها كعمل الفعل فيما بعده تناولا متشابها عند ما يقول **{إن فيها زيدا قائما}** و**{إن زيدا قائما أو قائم}**. وتفسير نصب **القائم** ههنا ورفعه كتفسيره في الابتداء. ومعنى هذا أنه يرده إلى الأصل[٩].

ويقول سيبويه أيضا: **في قولك {إن زيدا ظريف وعمرو}**. عمرو يرتفع محمولا على الابتداء لأن معنى (إن زيدا ظريف) هو (زيد ظريف)[١٠].

رابعا يمكننا أن نعتبر كتاب سيبويه نوعا من محاولة الوصول إلى ما يسمى في أيامنا هذه **النحو التواصلي**.

ويدل على ذلك ما يقول في تفسير بعض المظاهر اللغوية مستعملا عبارات مثل: **كأنه قال / كما قلت / إذا قلت / كأنه قيل له /** الخ.

يقول مثلا في تفسير إعراب **عبد الله في {مررت برجل عبد الله}** كأنه قيل له، بمن مررت؟ وقال: بعبد الله. أو ظن أنه يقال له ذلك. وإذا قلت **{مررت برجل عبد الله} كأنه قيل لك: من هو؟ أو ظننت ذلك**. وفي قوله (مررت بعبد الله أخوك) كأنه قيل له: من هو؟ أو من عبد الله؟ وقال: أخوك.

والدلائل المشيرة إلى مثل هذا التحليل التواصلي عددها كثير جدا.

خامسا وأخيرا

ونجد أيضا في كتاب سيبويه أنّه كثيرا ما يتناول بحث نصوص أو قطع نصوص، وذلك أن النحاة القدماء كان يجب عليهم إثبات حدود تعابير وتراكيب لغوية وإعرابها. مثلا يقول سيبويه في (هذا الرجل منطلق أو منطلقا) إنه في (هذا الرجل منطلق) الرجل صفة لهذا. وهما بمنزلة اسم واحد، لأنك قلت: هذا منطلق، ومنطلق خبر. وإذا قلت (هذا الرجل منطلقا) جعلت الرجل مبنيا على هذا، وجعلت الخبر حالا له، قد صار فيها. فصار لقولك: (هذا عبد الله منطلقا)[١١].

وهذه الكلمات الثلاث **(هذا – الرجل – منطلق)** إذا لم نثبت أواخرها الإعرابية، فلا تكون جملة مفيدة، ولما أثبتنا الإعراب، فإما تكون جملتين مختلفتين أو لا جملة إطلاقا.

وكان واجب سيبويه هنا استكشاف أو تحديد حدود التراكيب. وهذا شيء مهم جدا، فإننا نفعل الشيء نفسه عند ما نقرأ أو نحلل نصا غير مزود بعلامات الترقيم.

---

[٩] كتاب سيبويه ج ١، ص ٢٤٢: باب الحروف الخمسة.

[١٠] كتاب سيبويه ج ١ ص ٢٤٥: باب ما يكون محمولا على إنّ فيشاركه فيه الاسم الذي وليها ويكون محمولا على الابتداء.

[١١] كتاب سيبويه ج ١، ص ٢٢١: باب ما يرتفع فيه الخبر لأنه مبني على المبتدأ.

وختاما:

حاولت في بحثي هذا أن أشير إلى أهمية دراسة الجملة الاسمية العربية مع مفاهيمها ومصطلحاتها من ناحيتين:

الأولى: الأبحاث اللغوية الحديثة.
والثانية: تدريس اللغة العربية لغير الناطقين بها.

كما وحاولت أيضا أن أؤكد بعض ملامح منهج كتاب سيبويه والتي تضمن أفضلية له على ما تبعه من كتب النحو العربي عبر القرون الطويلة.